الإخوان المسلمون تؤكد مجددًا وجوب التصدي السلمي للانقلاب العسكري

بسم الله الرحمن الرحيم

لماذا يجب أن نتصدى للانقلاب العسكري؟

إن الانقلاب العسكري الدموي الذي جرى في مصر ليس مجرد اغتصاب لإرادة الشعب وتغييب لمؤسساته المنتخبة وإلغاء لإرادته الحرة في عصر انحازت فيه كل شعوب العالم إلى الحرية والديمقراطية فحسب، ولكنه فضلاً عن ذلك جرٌّ للأمة إلى هاوية سحيقة من التخلف الحضاري والتفكك الاجتماعي؛ لأن الانقلاب على الديمقراطية والإرادة الحرة يؤسس للاستبداد، الذي هو أصلٌ لكلّ فسادٍ، والمدقّقُ في أحوالِ البشرِ وطبائعِ الاجتماعِ يدرك أنّ للاستبدادِ أثراً سيئاً في كلِّ وادٍ، يضغطُ على العقل فيفسدُه ويقضي على القُدُراتِ العقليةِ للأمة، ويفلُّ من إرادتها وعزمها، كما يؤدي إلى اهتزاز العلاقات الاجتماعية بين أفرادِ المجتمع، ويتلاعبُ الاستبداد بالدّين فيفسدُه، ويحاربُ العلمَ فيفسدُه، ذلك أن رجالَ الاستبدادِ يطاردون رجالَ العلم، وينكّلون بهم، فالسّعيدُ منهم مَنْ يتمكن من مهاجرةِ دياره، ولا يخفى على كل ذي بصيرة كم من العقول المسلمة هاجرت إلى بلاد الغرب حيث الحريةُ فأبدعتْ وقدمت الكثيرَ للغرب.

وهاكم بعض آثار الاستبداد التي تجعل من التصدي السلمي العلمي له واجبًا شرعيًّا ووطنيًّا:

1 – لا يعلن الاستبداد صراحة أنه يحارب الدين، لكنه يعمل على الانتقاص من معاني الرسالة فيحْذف من "الأمر بالمعروف" كلَّ ما ينال من إطلاق يد

المستبد، ويضيِّقُ "النهي عن المنكر" ليسقطَ منه كلَّ ما ينال من أخطاء الحاكم المستبد، ويقلِّصُ معني "الإيمان بالله" ليقتصرَ على المظهر الدينيِّ للعبادة، ويعمل على أن يتحوَّل الإسلامُ في حِسِّ الناس إلى ممارسةٍ فرديةٍ، ويتم التركيزُ التدريجي على الشعائرِ التعبديةِ والفضائلِ الفرديةِ الخاويةِ من الروح على أنها هي الدينُ كله، ويمنع الحديث عمَّا كان وعمَّا هو كائنٌ من فساد وانحراف، ويصاحبُ ذلك إهمالُ المظهر الاجتماعي الذي يُسوِّي بين جميع أفراد الأمة، كما يصاحبه تَرْكُ الانشغال بالقضايا العامة التي تقرر مصيرَ الأُمة.

وبذلك تسقطُ أسبابُ خيرية الأمة التي حدَّدها الحق سبحانه وتعالى في قوله (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) [آل عمران: 110].

ولم يخطئْ ولم يبالغْ بعضُ الدعاة عندما قال: "إنَّ الحكمَ الفرديَّ من قديمٍ أهلك الحرثَ والنسلَ، وفرض ألوانًا من الجَدْب العقلي والشلل الأدبي، أذْوَت (أي أضعفت) الآمالَ، وأقْنَطت الرجال".

2 – يتبدل سلّم القيم في الأمة؛ لتصبح القوةُ فوق الفكر، الأمر الذي يجعل "المستبد" وأعوانَه هم أولي الأمر، وأصحاب المشورة والرأي، بينما يُسْتَبعدُ أهلُ الفكر والوعي والمعرفة، وتتغير وظيفة مؤسسات الدولة لتخدم المستبد على حساب الأمة، فتصبح وظيفةُ المؤسساتِ القانونيةِ والقضائية تنفيذَ إراداتِ السلطةِ المستبدة؛ بدلاً من تطبيق القانون، وحفظ الحقوق، ورد المظالم، وتحقيق مصالح الأمة، وتصبح وظيفة المؤسسات الأمنية ملاحقةَ معارضي الاستبداد، والتنكيلَ بخصوم المستبد، بدلاً من ملاحقة المفسدين ومتابعة عصابات الإجرام، وتمتلئ المؤسسات العقابية (السجون) بالناصحين المخلصين والوطنيين الصادقين، فتُحْرَم الأمةُ من الكفاءات العلمية والفكرية والأكاديمية المهمة (انظر كم أستاذا جامعيا وكم عالما متخصصا في مختلف التخصصات الحيوية يعتقلون الآن في سجون الانقلاب، وكم منهم مطاردا وملاحقا من الأجهزة الأمنية القمعية)، ومن ثَمَّ تحصل المظالم في شتى مناحي الحياة، اقتصاديًّا واجتماعيًّا وأخلاقيًّا، وتبطئ أو تتوقف أو تتراجع عملية التنمية، وقيم الوطنية والرجولة والأخلاق النبيلة، وهذا ما يراه بوضوح كل ذي بصيرة خلال شهرين من الانقلاب.

ولا شك أن تغييب هذه الكفاءات العلمية والخبرات المتخصصة يؤدي إلى ارتفاع الرويبضة الأسافل الذين يُفَوَّضون في حل المشكلات وعقد الصفقات، وتدبير أمر الأمة المغلوبة، فيأخذونها للهاوية بجهلهم وضعف تفكيرهم، وقد ورد ذكرهم في حديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: "سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَّاعَاتٌ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ" قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ: "الرَّجُلُ التَّافِهُ –وفي رواية: السَّفِيهُ، وفي رواية: الْفُوَيْسِقُ– يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ".

وهكذا يقف أئمةُ الضلال ومحترفو الجدل قادةً لمرحلة الضياع الفكري، ويؤازرهم المنافقون من أهل العلم الشرعي الذين يستخدمون علمهم في تبرير الأوضاع الفاسدة والتماس الأعذار للمستبدين، وفي تحريم الحلال وإباحة الحرام، وخلط الحقائق، حتى يختلط على جمهرة الأمة تمييز المعروف من المنكر، ويتصدر هؤلاء الساحاتِ المختلفةَ، وميادينَ العمل المتقدمة، فيحجبون الحقَّ، ويظهرون الباطلَ، وتُزْوَى النماذجُ الصالحة، وتتألَّقُ النماذجُ الهابطة، وتتعرض سفينة المجتمع كلها للضلال والضياع.

3 – تهتز مكانةُ العدل في الأمة، وتُبْذَر بذورُ الظلم، وتفقد قِيَمُ الرسالة فاعليتَها وتأثيرها، وتصبح مجردَ تراثٍ يأخذ منه الظالمون المستبدون ما يبرر هيمنتَهم واستبدادَهم، ويأخذ منه الضعفاء ما يَسْتَجْدون به أشياءَهم وبعض حقوقهم، وبذلك تسود قِيَمُ النفاق التي تفترس المظلومين من أذكياء الأمة ومحروميها.

وفي ظل الاستبداد يبرز تيار سلطوي من أهل العلم بالدين ينتقي من النصوص والأدلة ما يلوي به عنقَ الشريعة؛ ليبرِّر تصرفاتِ الحكامِ المستبدِّين الضالَّةَ وأوضاعَهم المنحرفةَ، فيبررون جوْرَهم وقسوتَهم على الأمة برعاية المصالح الكبرى للأمة، ويبررون تفريطَهم وتخاذُلَهم أمام عدوِّهم بأنه من باب السياسة الشرعية، ويكون الصوتُ العالي للفتاوى التي تتناول حقوقَ الحاكم ووجوبَ السمع والطاعة، وتَحَمُّلَ الإمامِ الغشوم؛ خوفاً من فتنةٍ تدوم، وتُسْتَخْرَج النصوصُ التي تُكَرِّسُ الخنوعَ للذلِّ، وتبرِّرُ الخضوعَ للظلمة.

وتُغَيَّبُ – عن عمد – النصوصُ والوقائعُ التي تدعو إلى مواجهة الظلم، ونصح الظالم، وتُكَرِّس مواجهةَ السلطانِ الجائرِ بالحقِّ باعتبارِه أعظمَ الجهاد، وتنهى عن الطاعة في غير المعروف أو الطاعة في معصية الله.

وفي ذات الوقت يصفون المعارضةَ السياسيةَ للمستبدين بالخروج والبغي، وينعتون النصيحةَ الشرعيةَ الواجبةَ لهم بالتمرد والإهانة للسلطان الشرعي، ويستحق المعارضُ الناصحُ الأمينُ في رأيهم الموتَ والإخراجَ من الأرض، بل ومن الإسلام إذا اقتضى الأمر، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وفي الوقت الذي عدَّ فيه النبي – صلى الله عليه وسلم – مواجهةَ المستبد الجائر بكلمة الحق أعظمَ الجهاد، ويلقِّبُ من فعل ذلك فقتله الجائرُ بسيد الشهداء، فيقول – صلى الله عليه وسلم –: "أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ"، ويقول – صلى الله عليه وسلم –: "سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَرَجُلٌ قَامَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ، فَقَتَلَهُ"؛ في ذات الوقت فإن سَدَنَةَ الاستبداد من أهل العلم يُفْتُون بأنَّ مَنْ فَعَل ذلك خارجيٌّ يستحق القتل!.

وبذلك يتحول بعضُ الدعاةِ من حيثُ يَدْرُونَ أوْ لا يَدْرُون إلى أدواتٍ بيد المستبدِّ، ويقدمون دليلاً زائفاً للماركسيين الذين يَدَّعُون زورًا وبهتانًا أن (الدين أفيون الشعوب).

4 – يتحول ولاءُ كثير من العامة من الخضوع لله مصدر الرسالة والحق إلى الخضوع للأشخاص المستبدين، الذين يتحكَّمون بمقتضي السلطة في مصائر الناس وأرزاقهم، فيرضون بالتنازل عن إرادتهم الحرة، بدلاً من التوجه بالدفع في نحر الظالم ومدافعة المستبد ليقلعَ عن ظلمه واستبداده، ومن ثم يتحول التوكل على الله إلى تواكل سلبي دون الأخذ بالأسباب، وتتحول عقيدةُ القضاء والقدر إلى تخاذلٍ وتقاعسٍ، بعد أن كانت عقيدةَ إقدامٍ وجرأةٍ في مواجهة الأعداء والأحداث (قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ) (التوبة: 51 – 52)

وقد كان ابن خلدون يركز على أن الاستبدادَ والظلمَ يُحوِّل الناسَ إلى شخصياتٍ ضعيفةٍ فيها كذبٌ ومكرٌ وتملُّقٌ، وعندئذٍ فلا خيرَ فيهم، فلا هم يستطيعون المطالبةَ بشيءٍ قوي، ولا المدافعةَ إذا طالبهم أحد.

وبهذا يتحول بعض رجالُ الفكر والعلم في الأمة إلى تملق المستبد وتبرير أخطائه وتصديق أكاذيبه، وترويج بضاعته الفاسدة الكاسدة على جمهور الأمة،

وذلك ما حذر منه النبي –صلى الله عليه وسلم– ورواه عدة من أصحابه –رضي الله عنهم– منهم كَعْبُ بْنُ عُجْرَةَ – رضي الله عنه – الذي قال له النبي – صلى الله عليه وسلم –: "يَا كَعْبُ بن عُجْرَةَ، أَعِيذُكَ بِاللَّهِ مِنْ إِمَارَةِ السُّفَهَاءِ"، قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا إِمَارَةُ السُّفَهَاءِ؟، قَالَ: "أُمَرَاءُ يَكُونُونَ مِنْ بَعْدِي، فَمَنْ دَخَلَ عَلَيْهِمْ، فَصَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ، وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَلَيْسَ مِنِّي، وَلَسْتُ مِنْهُ، وَلَنْ يَرِدَ عَلَى الْحَوْضِ، وَمَنْ لَمْ يَأْتِهِمْ وَلَمْ يُصَدِّقْهُمْ، بِكَذِبِهِمْ وَلَمْ يُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَهُوَ مِنِّي، وَأَنَا مِنْهُ، وَسَيَرِدُ عَلَى الْحَوْضِ" .

فويل للأمة ثم ويل لها من المستبد وممن يزينون له استبداده، ويروِّجون مظالمَه، فيورثون الأمةَ ضياعاً وفساداً، ومن حِكَم العرب: "الاستبدادُ والقسوةُ يورثان البلادةَ والجفوة".

قال ابن عبد البر في بهجة المجالس: "ولا أعلم أحداً رضي الاستبدادَ إلا رجلٌ مفتونٌ مخادِعٌ لمن يطلب عنده فائدةً، أو رجلٌ فاتكٌ يحاول حين الغفلة، وكلا الرجلين فاسق".

5 – ينقسم المجتمع من الناحية العملية إلى طوائف وفرق، تتفاوت في قوتها بحسب قربها أو بعدها من السلطة الاستبدادية (إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا) (القصص:) وقد رأيت كيف أن الانقلاب كانت أول أعماله تقسيم جماهير الشعب التي ملأت الميادين والشوارع إلى قسمين: وصف قسما منها بالجماهير المبهرة والشريفة، ونعت القسم الآخر بكل نعوت الخيانة والإرهاب والفساد واستحل عبر آلته الإعلامية أعراضهم كما استحل عبر آلته الأمنية دماءهم وحرياتهم.

وقد ذكر الشيخ الغزالي أن "من مقابح الاستبداد: أسلوبَه الشائنَ في إهانة الكفايات، وترجيح الصغار وتكبيرهم، تبعاً لمبدئه العتيد: أهلُ الثقة أوْلى من أهل الكفاية.

ومَنْ هم أهلُ الثقة؟ أصحابُ القدرة على المَلَق والكذب، اللاهثون تحت أقدام السادة؛ تلبيةً لإشارة، أو التقاطاً لغنيمة. هذا الصنفُ الخسيسُ من الناس هو الذي يُؤْثَر بالمناصب، ويَظْفَر بالترقيات، وتُضْفَى عليه النعوتُ، ويُمَكَّنُ له في الأرض.

أما أهلُ الرأي والخبرة والعزم والشرف فإنَّ فضائلَهم تُحْسَب عليهم لا لهم، وتُنْسَج لهم الأكفانُ بدل أن تُرْفَع لهم الرايات.

والويلُ لأمةٍ يقودها التافهون، ويَخْزَى فيها القادرون!

وقد كنتُ أقرأ في الصحف –دون دهشة– كيف أن المسئول عن "الثقافة والفكر في الاتحاد الاشتراكي" رجلٌ أميٌّ يصيح كلما سأله المحقق: اعذرني فإني جاهل.

إن هذه طبيعةُ الأوضاع التي تعيش على الظلام وتكره النور.

ما أكثرَ العلماء في بلادنا لو أُريد توسيدُ الأمر أهلَه، ولكن العلماء ليسوا موضعَ ثقةٍ لصغار المتصدرين؛ لأن العالِم يستنكرُ المتناقضات ويكره الدَّنِيَّة، ويقول بغضب:

أأشْقَى به غرساً وأجْنِيهِ ذِلَّةً إِذَنْ فاتباعُ الجهل قد كان أحْزَما

6 – تتحدد مكانةُ الأفراد في الأمة ومسئولياتُهم طبقاً لمواقفهم من السلطة الاستبدادية، فينحسر الولاءُ لدي الأفراد من مجال الأفكار والمبادئ إلى مجال أشخاص السلطة المستبدة، وها هنا تُلْغَي مقاييسُ الفكر والقدرات الفكرية والولاءات الوطنية والإسلامية، إلا بمقدار ما تمليه الضرورة في تأمين الولاء لأشخاص السلطة الاستبدادية واستقرار نفوذهم.

قد لا يموتُ الإنسان في ظل الاستبداد، ولكنه يعيش بإنسانيةٍ مفقودةٍ، وشخصيةٍ مشوَّهةٍ، وأخلاقٍ مَرْذُولَةٍ، وبَلادَةٍ ممقوتة.

وما أصدق قولَ الشيخ الغزالي رحمه الله: "يستحيل أن يتكوَّن في ظل الاستبداد جيلٌ محترمٌ، أو معدنٌ صُلبٌ، أو خُلُقٌ مكافح.

وتأمل كلمةَ عنترةَ لأبيه شدَّاد لما طلب منه الدفاعَ عن القبيلة، قال: إنَّ العبدَ لا يُحْسنُ الكرَّ والفرَّ، ولكنه يحسن الحلبَ والصَّرَّ! فأجاب الوالد: كُرَّ وأنت حرٌّ! وقاتل "عنترة" وتحت لواء الحرية أدَّى واجبه، ولو بقي عبداً ما اهتم بهلاك أمةٍ من الناس فَقَدَ بينهم كرامتَه ومكانَتَه".

الخلاصة: أن الاستبدادَ يفسدُ الفطرةَ البشريةَ، ويُهَدِّدُ الحياةَ المجتمعيَّةَ، ويقلِّص من فرص الإبداع والإنجاز، ويحطمُ فضائلَ النفس البشرية، ويُحَلِّل مقوماتِها، ويغرسُ فيها طباعَ العبيد، ويُشْعِرُ الفردَ بالضآلة والمهانة، فينشأُ نشأةً لا يَثِقُ فيها بنفسه، ولا يقدرُ على اتخاذ القرار الذي يناسبُه، فتنشأُ الأجيالُ في ظل الاستبداد الأعمى عديمةَ الكرامة، قليلةَ الغَنَاء، ضعيفةَ الأخذ والرد.

لهذا كله ولغيره يجب أن نتصدى جميعا للانقلاب والاستبداد بصورة سلمية حضارية دون أي عنف؛ لأن أكثر ما يعمل الانقلابيون المستبدون على حصوله هو إثارة موجات من العنف يتخذونها غطاء لممارساتهم القمعية البوليسية التي لا يجيدون غيرها.

والله أكبر وتحيا مصر حرة مستقرة.

وصلى الله على سيدنا محمد على آله وصحبه وسلم

الإخوان المسلمون

القاهرة في: 20 من ذي القعدة 1434هـ الموافق 26 من سبتمبر 2013م